DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

الاقتصاد والمجتمع في مصر فى النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي من خلال كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي

د. رفعة بنت سعيد الغامدي
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، المملكة العربية السعودية
البريد الالكتروني: rsaalgamdi@kau.edu.sa

الملخص

يتناول هذا البحث صورة مصر في مؤلَّف الجغرافي الشهير الشريف الإدريسي، بوصفه أحد أهم المصادر الجغرافية التي تقدّم مشاهدات دقيقة ومباشرة عن أحوال البلاد الإسلامية في القرن السادس الهجري، ولا سيما مصر التي احتلت مكانة محورية في مؤلفاته. ويركّز البحث بوجه خاص على ما أورده الإدريسي عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مصر خلال مرحلة انتقالية حاسمة من تاريخها، تزامنت مع أواخر العصر الفاطمي وبدايات الحكم الأيوبي، وهي مرحلة اتسمت بتحولات سياسية واقتصادية واجتماعية عميقة انعكست على بنية المجتمع والدولة معًا.

وتنبع أهمية هذه الدراسة من أن الإدريسي لم يكتفِ بالنقل عن مصادر سابقة، بل اعتمد بدرجة كبيرة على الملاحظة المباشرة والمعاينة الميدانية في وصفه للمدن المصرية، وشبكات العمران، وطرق المواصلات، ومظاهر النشاط الزراعي والتجاري، وأنماط الإنتاج والصناعات المحلية. وهو ما يجعل مادته الجغرافية وثيقة ذات قيمة تاريخية أصيلة، يمكن من خلالها إعادة بناء صورة الاقتصاد والمجتمع في مصر في القرن السادس الهجري، واستجلاء طبيعة الحياة اليومية ومستويات الازدهار أو التراجع في مختلف الأقاليم.

وتهدف الدراسة إلى تحليل معطيات الإدريسي المتعلقة بالزراعة، والتجارة الداخلية والخارجية، والصناعات، والتنظيمات الحضرية، والعلاقات الاجتماعية، في إطارها العام ضمن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر خلال تلك الفترة، مع إبراز مدى دقة ملاحظاته ودرجة اتساقها مع ما تذكره المصادر التاريخية والجغرافية المعاصرة له أو القريبة من عصره.

وقد اعتمد البحث على المنهج التحليلي النقدي المقارن، من خلال استقراء نصوص نزهة المشتاق في اختراق الآفاق المتعلقة بمصر، وتحليلها وربطها بالواقع التاريخي الموثق في كتب التاريخ والرحلات والجغرافيا، بهدف الكشف عن ملامح البنية الاقتصادية والاجتماعية كما رآها الإدريسي، ومقارنة رؤيته بغيره من الجغرافيين والمؤرخين.

وتخلص الدراسة إلى أن الإدريسي قدّم من خلال وصفه لمصر رؤية علمية دقيقة تجمع بين التحليل الجغرافي والبعد الاقتصادي والاجتماعي، بما يجعل مؤلفه وثيقة مزدوجة القيمة: جغرافية من حيث المنهج، وتاريخية من حيث المضمون، وشاهدًا واضحًا على نضج الفكر الجغرافي الإسلامي وقدرته على توظيف الملاحظة الميدانية في قراءة الواقع الاقتصادي والاجتماعي في القرن السادس الهجري.

الكلمات المفتاحية: الإدريسي، نزهة المشتاق، الاقتصاد، المجتمع، مصر.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

Economy and Society in Egypt during the First Half of the Sixth Century AH / Twelfth Century A Study Based on Al-Sharif Al-Idrisi's AD: Nuzhat al-Mushtaq fi Ikhtiraq al-Afaq

Dr. Refah bint Saeed Al-Ghamdi
Assistant Professor, Department of History and Archaeology, Faculty of arts and humanities, King Abdulaziz University, Jeddah, Kingdom of Saudi Arabia
Email: rsaalgamdi@kau.edu.sa

ABSTRACT

This study examines the image of Egypt as presented in the work of the renowned geographer al-Sharīf al-Idrīsī, whose writings constitute one of the most important geographical sources offering precise and firsthand observations on the conditions of Islamic lands in the sixth century AH (twelfth century CE). The research focuses in particular on al-Idrīsī's depiction of the economic and social conditions of Egypt during a critical transitional phase in its history, coinciding with the final decades of the Fatimid period and the early emergence of Ayyubid rule—a period marked by profound political, economic, and social transformations. The significance of this study lies in the fact that al-Idrīsī did not rely solely on earlier written sources, but made extensive use of direct observation and empirical description in portraying Egyptian cities, patterns of urban development, agricultural production, commercial activity, and local industries. As a result, his geographical accounts represent historically valuable evidence that allows for the reconstruction of Egypt's economic structure and social organization during the sixth century AH, as well as an understanding of everyday life and regional disparities within the country. The study aims to analyze al-Idrīsī's data on agriculture, internal and external trade, crafts and industries, urban organization, and social relations, situating these observations within the broader framework of Egypt's economic and social life at the time. It also seeks to assess the accuracy of his descriptions through comparison with contemporary and near contemporary historical and geographical sources. Methodologically, the research adopts a critical, analytical, and comparative approach, based on a close reading of the sections of Nuzhat almushtāq fī ikhtirāq alāfāq related to Egypt and their evaluation in light of corroborating historical evidence. The study concludes that al-Idrīsī offered a scientifically rigorous portrayal of Egypt that integrates geographical analysis with economic and social perspectives, rendering his work a source of dual value—geographical in method and historical in content—and a clear testament to the maturity of Islamic geographical thought in the sixth century AH.

Keywords: Al-Idrisi, Nuzhat al-Mushtaq, Economy, Society, Egypt.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

مقدمة:

تحتل مؤلفات الجغرافيين المسلمين موقعًا متميّزًا في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم الإسلامي، لما تتضمّنه من مشاهدات ميدانية ووصف دقيق للأقاليم والمدن والأنشطة البشرية. ويأتي كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي في طليعة هذه المؤلفات، بما حوى من مادة علمية ثرية تسجّل أحوال البلاد الإسلامية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وهو العصر الذي تبلورت فيه ملامح الجغرافيا العلمية في الحضارة الإسلامية.

وتبرز مصر في هذا المؤلف بوصفها مركزًا حضاريًا بالغ الحيوية، شهد خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري تحوّلات سياسية واقتصادية واجتماعية عميقة، إذ انتقلت من أواخر الحكم الفاطمي إلى بدايات الدولة الأيوبية. ومن هنا تنبع أهمية تناول صورة مصر في كتاب الإدريسي، ليس فقط لأنها تمثّل مرحلة دقيقة من تاريخها، بل لأن الإدريسي قدّم عنها شهادة معاصرة تعتمد على المعاينة والملاحظة لا على النقل والرواية.

ورغم أن الدراسات السابقة قد أولت الإدريسي اهتمامًا واضحًا من حيث مكانته في الفكر الجغرافي، فإنها لم تتناول ما ورد في نزهة المشتاق عن مصر بوصفه مادة يمكن من خلالها تحليل بنية المجتمع واقتصاده. ومن هذا المنطلق، يهدف البحث إلى إعادة قراءة نصوص الإدريسي المتعلّقة بمصر للكشف عن دلالاتها الاقتصادية والاجتماعية، واستجلاء مدى دقته في وصف المدن، وحركة التجارة، وأنماط الزراعة والصناعة، والعلاقات الاجتماعية التي شكّلت الإطار العام للحياة المصرية في تلك الحقبة.

وتتحدد إشكالية البحث في السؤال الآتي: إلى أي مدى يمكن اعتماد وصف الإدريسي لمصر مصدرًا موثوقًا لإعادة بناء المشهد الاقتصادي والاجتماعي في القرن السادس الهجري؟ وينبثق عن هذه الإشكالية عدد من التساؤلات الفرعية حول طبيعة مصادر الإدريسي، وحدود تأثره بالمدارس الجغرافية السابقة، ومقدار أصالته في التحليل والتفسير. وللإجابة على هذه التساؤلات اعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي التحليلي في جمع المادة العلمية من مصادرها الأصلية، وعلى المنهج النقدي المقارن في تقويم الروايات التاريخية، مع توظيف التحليل النصي لاستخلاص الملامح الاقتصادية والاجتماعية من وصف الإدريسي لمصر.

وجاء بناء البحث في أربعة مباحث رئيسة تسبقها هذه المقدمة وتليها خاتمة تتضمن النتائج والملاحظات، على النحو الآتي:

1. المبحث الأول: جوانب من حياة الإدريسي ونشأته وجهوده العلمية.
2. المبحث الثاني: رحلة الإدريسي في مصر. الإطار الزمني والسياق التاريخي.
3. المبحث الثالث: الأوضاع الاقتصادية في مصر.
4. المبحث الرابع: ملامح المجتمع المصري في المدن والقرى.

المبحث الأول
جوانب من حياة الإدريسي ونشأته وجهوده العلمية

أ- نسبه ومولده:

ينتمي الشريف الإدريسي إلى أسرة عربية عريقة النسب، فهو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى بن علي بن حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي (سوسة، 1974، ص273؛ عنان، 2000، ص306-307) وبهذا ينتسب إلى الأدارسة العلويين، ولهذا لُقِب بـ الشريف الإدريسي (غلاب، 1984، ص144).

كما لُقِب بـ الصقلي نسبةً إلى جزيرة صقلية التي اتخذها موطناً له بعد سقوط الدولة الإسلامية فيها، وباسترابون العرب تشبيهاً له بالجغرافي الإغريقي الشهير "استرابون". وقد كان من أبرز العلماء في الرياضيات والفلك والجغرافيا، وله إسهامات واضحة في هذه العلوم من خلال ما قدم في علوم المساحات والمسافات، وما وضح من دروب لقطع الطرق بين الجهات، وهو ما جعل الباحثين الأوربيين يشيرون أن الإدريسي من أوائل العلماء في العصور الوسطى الذين جمعوا بين النظر العقلي والدقة في الملاحظة، مما جعله أحد أعظم الجغرافيين في التاريخ الإنساني (سالم، د.ت، ص193).

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

أما عن مولده؛ فقد وُلد الإدريسي في مدينة سبتة بالمغرب الأقصى عام 493هـ / 1100م (ضيف، 1956، ص4؛ الشهابي، 1962، ص59؛ عبد الغني، 1971، ص9؛ نفيس، 1978، ص99؛ صفر، 1984، ص64)، وقيل إن مولده كان في إشبيلية (الجوهري، 1984، ص91)، غير أن الرأي الراجح والمتفق عليه أنه وُلد بسبتة.
وقد أشار بعض الباحثين إلى أن الغموض الذي يحيط بسيرته العلمية وتفاصيل حياته – ولا سيما ما يتصل بشيوخه ومراحل تعليمه – يعود إلى ما قيل عن إسرافه في مدح الملك روجر الثاني والنصارى في صقلية بعد طرد المسلمين منها (كترمير، 1986، ص168؛ الحريري، 1985، ص73-74)، غير أن هذا الرأي مردود، إذ لم يقلّ قدر الإدريسي بين العلماء المسلمين، بل حظيت مؤلفاته بتقدير واسع بين علماء الجغرافيا واللغة والتاريخ (مؤنس، 1986، ص168-169).

ب- دراسته ورحلاته واكتشافاته:

حفظ الإدريسي في حداثته القرآن الكريم والمتون وأشهر القصائد (سوسة، 1974، 275)، ثم انتقل مع أسرته إلى الأندلس واستقر في قرطبة التي كانت آنذاك مركزاً علمياً بارزاً. وهناك تلقى علومه في جامعتها، فدرس الرياضيات والتاريخ والجغرافيا (الشهابي، 1962، ص59). وأبدى معرفة دقيقة بقرطبة وصفها في مؤلفاته وصفاً يدل على معايشة مباشرة لهذه المدينة (حميدة، 1980، ص316).
وقد جمع الإدريسي بين علوم النقل والعقل؛ فدرس الفقه والحديث واللغة، إلى جانب إتقانه الحساب والهندسة والفلك والطب ومعرفة الأعشاب، فضلاً عن اطلاعه على الأوضاع السياسية في عصره. ومن خلال إنتاجه العلمي يتضح ميله الواضح إلى علم الجغرافيا وعلم الهيئة (الفلك) والنجوم والطب (مؤنس، 1986، ص174؛ الحريري، 1985، ص3).
ويُعد الشريف الإدريسي أحد كبار الجغرافيين في التاريخ الإنساني، إذ امتد اهتمامه إلى التاريخ والأدب، والنبات والطب والفلك .وقد أخذ العلم في سبتة وقرطبة، وزار الحجاز وتهامة ومصر، كما سافر إلى القسطنطينية وآسيا الصغرى، ووصل إلى سواحل فرنسا وإنجلترا، وقد ذهب البعض إلى خطأ زيارة الإدريسي لسواحل فرنسا وانجلترا، لأن وصف الإدريسي لهما بدقة لا يعنى زيارتهما بل ثبت أنه اعتمد فى وصفه لهما على أقوال نفر من أهلهما (مؤنس، 1986، ص170)، ثم أقام فترة في صقلية ضيفاً على ملكها روجر الثاني (الشهابي، 1962، ص5960؛ عنان، 2000، ص306-307)، وقد ألمّ الإدريسي في شعره بشعور الغربة عن موطنه سبتة، مما يعكس عمق ارتباطه بها.
اختار الإدريسي الإقامة في صقلية بعد سقوط الحكم الإسلامي فيها، استجابةً لدعوة الملك النورماني روجر الثاني الذي عُرف بحبه للعلم واهتمامه بالمعرفة. كما أن الظروف السياسية التي أحاطت بأسرة الإدريسي في المغرب أسهمت في انتقاله إلى بلاط الملك روجر الثاني (سوسة، 1974، ص267؛ عمران، 2015م، ص279)، ولم يكن موقع صقلية عائقاً أمام عطائه العلمي، بل كان عنصراً محفزاً، إذ كانت الجزيرة في موقع متوسط بين الشرق والغرب، تؤمّها السفن التجارية من مختلف أنحاء البحر المتوسط، وتلتقي فيها المعارف والخبرات البشرية من تجار وبحارة ومستكشفين. كما يسّر موقعها الجغرافي إرسال بعثات علمية واستكشافية إلى مناطق لم يُكتب عنها من قبل (الحريري، 1985، ص56).
وقد أمر الملك روجر الثاني الإدريسي بصنع خريطة للعالم تُعرف باسم لوح الترسيم، نُقشت على لوح من الفضة، ورافقها وصف تفصيلي دقيق للمدن والأقاليم في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .وقد تميز الإدريسي في تحديد مواقع البلدان والأنهار بدقة متناهية، مستنداً إلى الملاحظة والاستماع والروايات الموثوقة، كما استخدم خطوط العرض والطول لتوضيح الفروق بين المناخات والفصول (سالم، د.ت، ص194).
وفي صقلية برزت عبقرية الإدريسي العلمية، إذ وجد فيها بيئة علمية متسامحة يكرم فيها الملوك العلماء المسلمين. فقد كان الملك روجر الثاني يميل إلى التشبّه بالمسلمين في هيئته وملبسه، ويُظهر احتراماً كبيراً للثقافة الإسلامية. وقد أورد الصفدي في الوافي بالوفيات أن «الملك روجر هو الذي استقدم الشريف الإدريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق من العدوة إليه ليصنع له شيئاً في شكل صورة العالم (الصفدي، د.ت، 14: ص72؛ سالم، د.ت، ص208).
ومن إنجازاته العلمية تحديد منبع نهر النيل بدقة، إذ وضع نقطة تقاطع النهر عند خط الاستواء، وهو الموقع الصحيح حيث يلتقي النيل الأبيض والنيل الأزرق فيما عرف بالخرطوم فيما بعد، مخالفاً بذلك نظرية بطليموس التي جعلت منبع النيل عند "تلة القمر" (الشهابي، 1962، ص61). حيث ذكر أن هذين النهران عبر أراضي السودان ويلتقيان عند منطقة تقع تحت خط الاستواء.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

وقد مكنه مقامه في سبتة من التعرف الدقيق على بلاد المغرب، ثم في قرطبة من التجوال في الأندلس، ويبدو أنه بدأ رحلاته منذ سن مبكرة، إذ قيل إنه بدأها وهو في السادسة عشرة من عمره، أي نحو 510هـ / 1116م (سوسة، 1974، ص276) فزار لشبونة وسواحل فرنسا وإنجلترا (كراتشكوفسكي، 1957، ص280)، ثم شمال إفريقيا ومصر والشام وآسيا الصغرى في رحلات استمرت قرابة عامين كما ذكر عبد الله كنون (كنون، د.ت، ص11؛ الحريري، 1985، ص3).

وقد أكسبته تلك الرحلات علماً واسعاً وشهرة كبيرة سبقت قدومه إلى صقلية، فكانت سبباً في دعوة الملك روجر الثاني له إلى بلاطه. عبر الإدريسي البحر إلى صقلية عام 528هـ / 1138م، وأقام فيها حتى وفاة الملك روجر عام 544هـ / 1154م (ضيف، 1956، ص191؛ عمران، 2015، ص279)، ثم عاد إلى سبتة حيث توفي عام 560هـ / 1160م، وقيل إنه دُفن في باليرمو بصقلية (عنان، 2000، ص314)، بعد أن قضى ست عشرة سنة في صقلية أنجز خلالها أعماله وخرائطه التي خلدت اسمه في تاريخ العلم والجغرافيا.

ج‌ مؤلفاته:

ألّف الشريف الإدريسي عدداً من الكتب والمصنفات التي تناولت موضوعات متعددة، كان محورها الرئيس علوم الجغرافيا والنبات، وقد اعتمد في كثيرٍ من مؤلفاته على المشاهدة الميدانية والتجربة المباشرة، في حين استند بعضها إلى النقل والرواية والإخبار .وتميزت أعماله بالدقة والمنهجية، مما جعلها مرجعاً علمياً مهماً في العصور الوسطى والحديثة على حد سواء.

1كتابه المشهور "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، ويُعرف أيضًا بـ "كتاب روجر "أو "الكتاب الروجري"، لأن الملك روجر الثاني ملك صقلية هو الذي كلفه بتأليفه، كما أمره بصنع كرة من الفضة منقوش عليها صورة الأقاليم السبعة .ويُقال إن تلك الدائرة الفضية تحطمت أثناء ثورة في صقلية بعد إنجازها بفترة وجيزة، بينما بقي الكتاب نفسه من أبرز الآثار الجغرافية العربية (عمران، 2015، ص279)، وقد أفاد الأوروبيون منه كثيرًا في معرفة بلاد المشرق، كما أفاد منه العرب والمسلمون على حد سواء، إذ نقل الفريقان خرائطه وترجموا أجزاءً منه إلى لغات متعددة .ويُعد هذا الكتاب فريدًا في بابه، استغرق تأليفه خمسة عشر عامًا، وامتاز بمنهج جديد في التأليف الجغرافي، حيث تناول الإدريسي وصف العالم بأكمله، ثم قسّمه إلى سبعة أقاليم، وكل إقليم إلى عشرة أقسام رئيسة، مع وصف تفصيلي ورسم خريطة لكل قسم .كما تجنّب الخلط بين الوقائع التاريخية والمعلومات الجغرافية، فكان بذلك مرجعًا أساسياً لعلماء أوروبا لما يزيد على ثلاثة قرون (الإدريسي، 1989، 1: ص118؛ عنان، 2000، ص312-314).

2كتاب "روضة الأنس ونزهة النفس "أو ما يُعرف أيضًا بـ "كتاب الممالك والمسالك" (عبد الحميد، 1954، 8: ص95؛ بالنثيا، 1955، ص313)، وهو من مؤلفاته الكبرى في الجغرافيا، إلا أنه لم يصلنا كاملاً، وبقي منه مختصره المعروف بـ "الإدريسي الصغير"، والمحفوظ في مكتبة حكيم أوغلو علي باشا بإسطنبول (عنان، 2000، ص314)، ويذكر أن كتاب (أنس المهج وروض الفرج) ، والذي ألفه للملك (غليوم) الأول والي حكم صقلية بعد روجار، وقد نشر من هذا الكتاب الأخير "قسم شمال أفريقيا وبلاد السودان" (عبد الغني، 1971، ص12؛ البيلي، 2007، ص8388) ، وهذا الكتاب الذي اشتُهر باسم (المسالك والممالك) وهو في حقيقة أمره يعد مختصرا لكتاب (نزهة المشتاق). وأهدى الإدريسي كتابه إلى الملك غاليام تقرباً إليه، حتى يظل يتمتع بالعلاقة القوية فى البلاط الصقلي كالتي كان عليها فى عهد روجر الملك السابق.

3ومن مؤلفاته غير الجغرافية كتاب "الأدوية المفردة"، الذي ذكر فيه أسماء العقاقير وخواصها باثنتي عشرة لغة مختلفة (ابن أبي أصيبعة، د.ت، 3: ص246؛ بالنثيا، 1955، ص313)، وقد أثنى عليه ابن أبي أصيبعة قائلاً : ""كان فاضلاً عالماً بقوى الأدوية المفردة ومنافعها ومنابتها وأعيانها" (ابن أبي أصيبعة، د.ت، 3: ص246)، وهو مما يدل على تمكنه من الطب والصيدلة والنبات إلى جانب علومه الجغرافية.

5وفي مجال علم النبات، ألّف كتابه "الجامع لصفات أشتات النبات"، الذي يُعَد من أوائل الموسوعات النباتية في التراث الإسلامي، وتوجد نسخة مصوّرة منه في معهد المخطوطات بالجامعة العربية، وهو شاهد على دقته في الوصف العلمي واهتمامه بالتصنيف النباتي (الإدريسي، 1995، 1: ص10).

على كل ما مضى لم يكن غريباً أن يطلق على الإدريسي (استرابون العرب) (ضيف، 1956، ص4؛ الشهابي، 1962، ص59؛ عبد الغني، 1971، ص9؛ نفيس، 1978، ص99، صفر، 1984، ص64؛ عنان، 2000، ص306)، فالإدريسي جمع في كتاباته طريقتي العرب والأوربيين (الشهابي، 1962، ص64؛ بالنثيا، 1955،ص314؛ ماجد، 1986، ص244). وقد وجد كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق "اهتماماً كبيراً من

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

قبل المستشرقين حيث تعددت طبعات أجزاء منه بعد ترجمته وربت على عشرين ترجمة لأبوابه المختصة بالبلدان المتعددة. وجاء في دائرة المعارف الفرنسية: "إن مصنف الإدريسي هو أوفى كتاب جغرافي تركه لنا العرب وأن ما يحتويه من تحديد للمسافات والوصف الدقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية" (باشا، 1997، ص120).

المبحث الثاني
رحلة الإدريسي في مصر: الإطار الزمني والسياق التاريخي

يُرجَّح أن الإدريسي قد بدأ رحلته إلى مصر في العقد الثاني من القرن السادس الهجري (1120–1130م تقريبًا)، وذلك خلال عهد الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله ووزيره القوي الأفضل شاهنشاه (حريري، 1985، ص44)، وربما حضر وزيره المأمون البطائحي، والوزير أبو على أحمد كتيفات بن شاهنشاة (حسن، 1971، ص171). وتشير الشواهد إلى أن إقامة الإدريسي في مصر امتدت لسنوات عدة، تمكّن خلالها من زيارة عدد من مناطقها الرئيسة، ودوّن مشاهداته الدقيقة عن المدن والأقاليم التي مر بها (الإدريسي، 1989، 1: ص317)، ولا سيما الوجه البحري والدلتا وهي أسفل الأرض، وبعض الموانئ الجنوبية الواقعة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) مثل ميناء عيذاب، الذي كان آنذاك من أهم مرافئ مصر التجارية والحجّية المؤدية إلى الحجاز واليمن (حسن، 1971، ص171).
ويمثّل هذا الإطار الزمني لرحلة الإدريسي في مصر أهمية خاصة، إذ توافق مع مرحلة دقيقة من التاريخ الفاطمي (الإدريسي، 1989، 1: ص317)، اتسمت بوضوح تراجع سلطة الخلفاء المركزية وازدياد نفوذ الوزراء، وهو ما ألقى بظلاله على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد (الإدريسي، 1989، 1: ص317). ومن هذا المنطلق، فإن ما سجله الإدريسي لا يُعد مجرد وصف جغرافي، بل هو في حقيقته مرآة تعكس التحولات البنيوية العميقة في المجتمع المصري خلال تلك المرحلة، سواء على مستوى نظام الحكم أو أحوال الناس أو الأنشطة الاقتصادية والزراعية (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348).
ويُلاحظ أن الإدريسي تجنّب في وصفه لمصر أي إشارة مباشرة إلى السلطة السياسية الفاطمية، فلم يذكر اسم الخليفة ولا الوزراء، وهو أمر لافت للنظر في منهجه الوصفي. وربما كان هذا التجنّب نابعًا من حذره الشديد بسبب الخلاف المذهبي بينه وبين الفاطميين، إذ كان من العلويين السنّيين في حين كان الفاطميون إسماعيليين باطنيين (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348)، فضلًا عن أن الإدريسي كان يدرك حساسية الموقف السياسي في مصر، ولا سيما تجاه الغرباء أو العلماء القادمين من خارجها. ولعلّ اختياره الصمت تجاه السياسة كان موقفًا حكيمًا اتسم به العديد من الرحالة المسلمين الذين فضّلوا السلامة على المواجهة، خاصة في ظل مراقبة الدولة الفاطمية للكتابات والرحلات خشية ما قد تحمله من تقارير أو انتقادات تُفسّر بأنها عمل استخباراتي أو ولاء خارجي (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348).
ويبدو أن الإدريسي كان واعيًا تمامًا لهذه المخاطر، ولا سيما أنه أقام لاحقًا في صقلية، التي كانت قبل حكم النورمان تابعة للدولة الفاطمية .ثم أصبح من المقرّبين إلى الملك النورماني روجر الثاني وابنه غليوم الأول، وهو ما قد يزيد من شبهات ولائه لو أنه دوّن شيئًا يُفهم على أنه انتقاد أو إفشاء لأسرار داخلية عن مصر الفاطمية. لذا جاءت كتاباته عن مصر منزهة عن الخوض في السياسة (حسن، 1971، ص171)، ومركّزة على الوصف الموضوعي للطبيعة والعمران والبنية الاقتصادية والاجتماعي، ولهذا الأمر تأثير آخر على رحلته إذ جاءت توقيتات نزوله البلدان مرجحة إذ أن إشارته للظروف السياسية وفترات وعهود للحكام قليلة جداً.
أما من حيث الظروف البيئية والطبيعية، فقد زار الإدريسي مصر في فترة اتسمت بوفرة فيضان النيل واستقرار المناخ الزراعي، وهو ما انعكس في أوصافه الغنية لحدائق الدلتا وبساتين الوجه البحري(الإدريسي، 1989، 1: ص317-348)، حيث تحدّث عن خصوبة الأرض وغزارة الإنتاج الزراعي وتنوع المحاصيل، كما قدّم تفاصيل دقيقة عن نهر النيل ومجراه وفروعه وترعه وخلجانه، مما يعكس دقة ملاحظته وتقديره للدور الحيوي للنيل في حياة المصريين .وقد تميّز أسلوبه في ذلك بالجمع بين الدقة العلمية والجمال الأدبي، فكانت لغته تجمع بين العقل الجغرافي والذوق الأدبي الرفيع (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348).
ويرجّح أن الإدريسي غادر مصر عبر بحر القلزم (البحر الأحمر)، متجهًا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج أو لمواصلة رحلاته العلمي؛ وتشير أوصافه إلى أنه سلك طريق درب الحاج المغربي، الذي يمتد من بلاد المغرب

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

ويبدأ من هناك بعد انضمام ركب الحج الأندلس، وصولا بأهم مدن الساحل المغربي وصولاً لبرقة، ثم مرورًا الإسكندرية، فالقاهرة، ومنها انحدر نحو الوجه البحري متتبعًا النيل حتى الفسطاط والجيزة والبهنسا وقوص(الإدريسي، 1989، 1: ص317-348)، ثم اتجه إلى ميناء عيذاب، حيث أبحر إلى سواحل الحجاز .كما أشار في بعض مواضعه إلى طريق الحاج المار بسيناء، وذكر المدن الواقعة على هذا المسار وصولاً إلى الساحل المقابل لمدينة أيلة على خليج العقبة، مما يدل على دقته الميدانية وإلمامه الجغرافي بالطرق البرية والبحرية المؤدية إلى الديار المقدسة (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348).
أما عن الإطار المكاني للرحلة، فقد جاب الإدريسي أرجاء مصر، ولا سيما وجهها القبلي، وهو ما يتضح من دقة أوصافه للقرى وما يقابلها على ضفتي النيل. ويبدو أن المعلومات التي قدّمها عن معظم بلدان الصعيد لم يكن كلها نتاج المشاهدة المباشرة، ل أن بعضها جاء وفقا للرواية الموثوقة، إذ يُرجَّح أنه لم يزر جميع مناطق الصعيد بنفسه (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348).
ومهما يكن من أمر؛ لا يمكن النظر إلى رحلة الإدريسي في مصر على أنها مجرد مرحلة عابرة في أسفاره الطويلة، بل تمثل حلقة مركزية في تشكّل رؤيته الجغرافية التي تجسدت لاحقًا في كتابه الخالد "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ."فمشاهداته في مصر – بما تمثله من ملتقى حضاري بين المشرق والمغرب، والعرب والعجم – صقلت تجربته العلمية، ومنحته قدرة فريدة على الربط بين الجغرافيا الطبيعية والإنسانية (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348)، وهو ما يظهر بوضوح في تحليلاته الدقيقة لأحوال مصر الزراعية والاجتماعية والاقتصادية، والتي تعد من أوائل المحاولات العربية في الجغرافيا التحليلية المقارنة (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348).

المبحث الثالث
الأوضاع الاقتصادية في مصر

زار الإدريسي مصر فى العصر الفاطمي وشاهد وعاين ما عليه أوضاع المجتمع المختلفة على كافة المستويات، بل وتزيد بعد ذلك بالقراءة عن أحوال مصر وأوضاعها ومدنها، وكان فى مقدمة ما طالعه عن مصر كتاب أبى عبيد البكري" المسالك والممالك" (حسن، 1971، ص171)، ومن ثم لفت نظرنا طرحه القيم للوضعية الاقتصادية والاجتماعية لمصر في أواخر العصر الفاطمي، وتحديداً في النصف الأول من القرن السادس الهجري.
والحقيقة أن اهتمام الإدريسي بأحوال مصر الاقتصادية كان منصباً على الحياة الزراعية، ومن ثم جاء حديثه دائماً عن الأحوال الاقتصادية مرتبطًا بالمدن المصرية الشهيرة ونيلها العظيم. وكان من الطبيعي أن يبدأ الإدريسي حديثه عن مصر بمدينة الإسكندرية، إذ أنها أول المدن المصرية الكبرى الداخلة إلى مصر من ناحية المغرب. وبحسٍّ جغرافيٍّ دقيق، تعرض الإدريسي للإسكندرية وأشار إلى ما تحويه من رسوم وآثار فقال: "فهي مدينة بناها الإسكندر وبه سميت، وهي مدينة على نحر البحر الملح، وبها آثار عجيبة ورسوم قائمة تشهد لبانيها بالملك والقدرة وتعرب عن تمكن وبصر" (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348).
ويعلق الإدريسي كجغرافي ونباتي على كثرة انتشار الغطاء الشجري والنباتي بالإسكندرية فيصفها قائلا: بأنها نامية جليلة المقدار (الإدريسي، 1989، 1: ص317348)، ثم يتوسع الإدريسي في تحليله ليصل إلى ما هو أعمق من الجانب الطبيعي، متناولًا البعد الاقتصادي والعمراني (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348)، وهو ما يؤكد الثراء الاقتصادي الذي يساعد على انتشار العمران وكثرته. بل نجد الإدريسي يصف حالة العمران في مدينة الإسكندرية وشوارعها بقوله:" شامخة البناء رائعة المغنى شوارعها فساح وعقائد بنيانها صحاح وفرش دورها بالرخام والمرمر وحنايا أبنيتها بالعمد المشمر... وهي في ذاتها كثيرة الضياء متقنة الأشياء وفيها المنارة التي ليس على قرار الأرض مثلها بنيانا (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348).
ويعلل لنا الإدريسي الثراء الاقتصادي الذي تمتعت به الإسكندرية بما شهدته من رواج في الحركة التجارية، وكثرة الأسواق، واتساع المزارع وتنوعها، فيقول: "رائجة التجارة وأسواقها كثيرة الاتساع، ومزارعها واسعة الانتفاع "(الإدريسي، 1989، 1: ص317-348؛ الزهري، د.ت، ص74؛ ابن الوزان، 2005، ص570)، ويكشف هذا النص عن وعي الإدريسي العميق بالعلاقة بين النشاط الزراعي والازدهار التجاري، فخصوبة الأرض وكثرة الإنتاج الزراعي كانتا من أهم مقومات القوة الاقتصادية للمدينة.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

وبمقارنة ما ذكره الإدريسي بشأن كثرة الأشجار واتساع المزارع في الإسكندرية بما أوردته مصادر العصر الفاطمي المتأخر وغيرها، نجد أن ظاهرة غرس الأشجار والبساتين لم تقتصر على الإسكندرية وحدها، بل انتشرت في العديد من المدن المصرية مثل البهنسا، والأشمونيين، وأسيوط، وأخميم، وقوص (المقريزي، د.ت، 1: ص204)، وقد كان ذلك انعكاسًا مباشرًا لازدهار الزراعة وتطور أنظمة الريّ، فضلًا عن العناية الخاصة التي أولتها الدولة الفاطمية للمشروعات الزراعية والبساتين المنتجة.

ويؤكد الرحالة ناصر خسرو، الذي أتيح له أن يزور مصر في العصر الفاطمي، أن الإسكندرية كانت عامرة بالبساتين والأشجار، وكان كثير من فاكهتها يُنقل بالسفن إلى مصر (القاهرة) (خسرو، 1993، ص47)، ومن ثم يتفق مع الإدريسي في أن الزراعة المزدهرة كانت من أهم أسباب رواج التجارة وثراء المدينة.

ولا شك أن ازدهار تجارة الإسكندرية جعل منها حلقة وصل حيوية بين الشرق والغرب، إذ كانت الميناء الرئيسة التي تتلاقى فيها تجارة البحر الأبيض المتوسط بتجارة وادي النيل. وكان من وراء هذا الازدهار إقبال التجار الأوروبيين على المدينة واقتناء المخازن والمستودعات لبضائعهم بها، ومن أبرز المدن الغربية التي تاجرت في الإسكندرية صقلية، وأمالفي، وجنوة، وبيزا، والبندقية (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348؛ عاشور، 1981، ص88؛ حمودة، 2014، ص156-157).

وقد أكد بعض الباحثين المحدثين أن أسواق الإسكندرية كانت تتسم بالتخصص والتنوع، إذ وُجدت بها أحياء مخصصة لأنواع معينة من السلع، ومن ذلك شارع الفلفل الذي اختص ببيع التوابل والعطارة، وهو ما يؤكد ما أشار إليه الإدريسي من حالة الازدهار التجاري الكبير بالإسكندرية وتنوع أنشطتها الاقتصادية (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348؛ القوصي، 1976، ص179).

والحقيقة فإن ما أورده الإدريسي عن الإسكندرية لا يقتصر على مجرد وصف لمدينة مزدهرة، بل يمثل تسجيلاً دقيقاً للبنية الاقتصادية والاجتماعية في مصر الفاطمية، حيث تكاملت الزراعة والتجارة والعمران لتصنع من الإسكندرية مركزاً تجارياً عالمياً يجمع بين الطابع الإسلامي والانفتاح على المتوسط.

ثم يورد الإدريسي في حديثه عن مدينة الفسطاط(الإدريسي، 1989، 1: ص317348؛ مجهول، 1999، 131؛ الاصطخري، د.ت، ص38) سبب تسميتها فيقول:« ومدينة الفسطاط هي مصر، سُمِّيت بذلك لأن مصرام بن حام بن نوح عليه السلام بناها في الأول، وكانت مدينة مصر أولاً عين شمس، فلما نزل عمرو بن العاص والمسلمون معه في صدر الإسلام وافتتحها، اختط المسلمون حول فسطاطه، فعمروا مكان مصر الآن» (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348).

ويُرجع الإدريسي سبب التسمية إلى قصةٍ رمزيةٍ ذات دلالة إنسانية، إذ يذكر أن عمرو بن العاص لما افتتح مصر وأراد المسير إلى الإسكندرية أمر بنقل الفسطاط أمامه، غير أنّ حمامةً حطّت فوقه وباضت، فأُخبر بذلك، فقال قولته المشهورة» :والله ما كنا لنُسيء إلى من ألفنا واطمأنّ بجانبنا حتى نفجع هذه الحمامة بكسر بيضها«، فأمر بترك الفسطاط حتى يفرغ فرخ الحمامة، ثم ارتحل بعد ذلك (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348).

ويمضي الإدريسي في وصف مدينة الفسطاط من حيث أحوالها الاقتصادية والاجتماعية، فيورد صورةً زاهيةً لحياتها العمرانية ومظاهر الرخاء فيها، فيقول: "وهي الآن مدينة كبيرة على غايةٍ من العمارة والخصب والطيب والحسن، فسيحة الطرقات، متقنة البناءات، قائمة الأسواق، نافقة التجارات، متصلة العمارات، نامية الزراعات. لأهلها همم سامية ونفوس نقية عالية وأموال مبسوطة نامية وأمتعة رائقة. لا تشتغل نفوسهم بهَمٍّ ولا تعقد قلوبهم، على الرغم من كثرة أمنهم ورفاهة عيشهم، وانبساط العدل والحماية فيهم، وطول المدينة ومقدارها ثلاثة فراسخ، والنيل يأتيها من أعلى أرضها فيجتازها من ناحية جنوبها وينعطف مع غربيها، فينقسم قدامها قسمين، يُعدّى في المدينة من الذراع الواحد إلى الآخر"(الإدريسي، 1989، 1: ص317-348).

كما يتناول الإدريسي الجانب الطبيعي والزراعي حول المدينة، فيشير إلى النباتات التي اشتهرت بها المنطقة في قوله: "وبعين شمس مما يلي الفسطاط ينبت البلسان، وهو النبات الذي يُستخرج منه دهن البلسان، ولا يُعرف بمكانٍ من الأرض إلا هناك" (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348).

ويضيف محددًا بعض النشاطات الاقتصادية الخاصة بالمدينة (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348؛ إدريس، 1986، ص129135) فيذكر: "وبأسفل الفسطاط ضيعة سيروا، وهي ضيعة جليلة يُعمل بها شراب العسل المتخذ بالماء والعسل، وهو مشهور في جميع الأرض" (الإدريسي، 1989، 1: ص326).

ومن خلال ما أورده الإدريسي يمكن استخلاص أن مدينة الفسطاط في عهد الإدريسي كانت عامرةً بالعمران، متقنة البناء، فسيحة الشوارع، وهو ما جعل بعض الرحالة السابقين يصفونها بأنها: "مفخر الإسلام ومتجر الأنام

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

وأجلّ من مدينة السلام بغداد"(المقدسي، 1991، ص197). وأنه كان لازدهار تجارتها وانتعاش أسواقها سببٌ جغرافيٌ واضح، إذ كانت تقع على ضفاف النيل، وهو الميناء الذي تقلع منه المراكب، مما جعلها أكثر رزقًا وأرخص أسعارًا من القاهرة (أبو الفدا، د.ت، ص108؛ ابن سعيد، د.ت، ص27؛ المقريزي، د.ت، 1: ص367).
كذلك عند مقارنة ما أورده الإدريسي عن طول المدينة بما ذكره الإصطخري، نجد اختلافًا واضحًا، فالأول يقدر طولها بثلاثة فراسخ بينما يذكر الثاني أن طولها ثلثا فرسخ، وهو ما يعكس تطور المدينة وازدهارها من القرن الرابع الهجري (عهد الإصطخري) إلى القرن السادس الهجري (عهد الإدريسي). يضاف إلى هذا أن ما أوضحه الإدريسي من أن وقوع الفسطاط على رأس الدلتا وإتيان النيل لها جعل جميع أصناف التجارة تأتيها من الجنوب والشمال والشرق والغرب بحكم موقعها الممتاز، ومن ثم جعلها ذلك مركزًا تجاريًا حيويًا، ولعل هذا ما يفسر ما ذكره الجغرافيون، من عظم مكانة الفسطاط، فكانوا يعددون البضائع التي كانت ترد عليها من كل حدب وصوب فيأتيها من الصعيد الأرز والصوف والتمور والخل والزبيب، ومن تنيس الثياب، ومن دمياط القصب، ومن الفيوم الأرز والكتان، ومن الفرما السمك، فضلاً عن ما كان يدخلها من جراء الجلبان من دهن الفجل والزئبق (المقدسي، 1991، ص203).
خامساً: ن ما أورده الإدريسي عن رفاهية عيش سكان الفسطاط وأمنهم وعدلهم انعكس في صورةٍ واضحةٍ على حالة التعايش الاجتماعي داخل المدينة، حيث كانت أسواقها تنقسم بحسب العناصر السكانية المختلفة، فنجد سوق المغاربة وسويقة العراقيين وسوق البربر، مما يعكس التنوع الثقافي والاجتماعي الذي تميزت به المدينة (خسرو، 1993، ص62-64؛ سرور، د.ت، ص146).
ثم يتنقل الإدريسي في حديثه لوصف مدينة الفيوم وما تحتويه من غلات وفواكه وزراعة، فيورد نصًا مفاده: "والفيوم مدينة كبيرة ذات بساتين وأشجار وفواكه وغلات، ولها جانبان على وادي اللاهون، وهو فيما يقال أن يوسف عليه السلام اتخذ له مجريان للماء في وقت الفيض ليدوم لهم الماء فيها وقومهما بالحجارة المنضدة، ومدينة الفيوم في ذاتها مدينة طيبة كثيرة الفواكه والغلات، وأكثر غلاتها الأرز وهو الأكثر في سائر حبوبها"(الإدريسي، 1989، 1: ص327؛ الزهري، د.ت، ص49-50؛ النابلسي، 2017، ص518). وهنا يمكن القول بأن ما ذهب إليه الإدريسي من أن الأرز كان أكثر غلات الفيوم يؤكده أيضًا أنصار ووثائق أخرى؛ إذ يذكر ابن حوقل أن الأرز كان أبرز المحاصيل في الفيوم، وينقل المقدسي وجود مزارع لأرزٍ فائقٍ في الفيوم تُستورَدُ منها محاصيل إلى غيرها (المقدسي، 1991، ص201-203). كذلك فإن الإدريسي لم يفصل أصناف الغلال الأخرى بالفيوم، إلا أن المراجع اللاحقة—كالنابلسي—تقول بوجود حصاد من القمح والشعير والفول ضمن محاصيل المنطقة (شافعي، 1940، ص47). كما أنه لم يذكر شهرةَ الفيوم بقصب السكر والمعاصر المرتبطة به، كما غفل عن الإشارة إلى ازدهار صناعة زيت الورد وكثرة الأسواق والحمامات التي ذُكرت في مصادرٍ لاحقةٍ تُعنى بالمنطقة (أبو الفدا، د.ت، ص114-115؛ النابلسي، 2017، ص29-30).
كما يُحدثنا الإدريسي عن مدينة أسوان، فيصفها بأنها آخر مدن الصعيد الأعلى، ويصف حالها بأنها مدينة صغيرة عامرة، كثيرة الحنطة وسائر الحبوب والفواكه والبطيخ وسائر البقول. ويشير إلى وفرة اللحوم فيها من بقريٍ وحملانٍ ومعز وخراف، وأن لحومها معروفة بطيب مذاقها ورخص أسعارها مع مرور الأيام، ويفيد بوجود تجارة تُحمل منها إلى بلاد النوبة (الإدريسي، 1989، 1: ص317-348). ويُفهم من نص الإدريسي هذا أن أسوان في نهايات العصر الفاطمي كانت مدينة صغيرة نسبيًا من حيث الحجم الرسمي، مع ذلك عامرة بالسكان ومنتجة زراعيًا. وقوله أنها آخرَ الصعيد الأعلى يشير إلى موقعها الحدّيّ ودورها كمحطة تجارية نحو بلاد النوبة، مما يبرهن على العلاقات التجارية بين المدن المصرية وبلدان النوبة. وجدير بالذكر أن التبادل التجاري بين أسوان والنوبة يتمُّ جزئيًا عبر قريةٍ تُدعى بلاق، التي كانت سوقًا بحريًا وبرّيًا تُحطّ عنده سفن النوبة ومراكب مصر، كما كانت مقصدًا لقوافل النوبة باعتبارها أكبر سوق في جنوب مصر.
ويتناول الإدريسي كذلك مدينة رشيد، موضحًا ما امتازت به من زراعة وتجارة، فيقول: "رشيد.. مدينة متحضرة بها سوق وتجار ونفقة، ولها مزارع وغلات حنطة وشعير، وبها جمل بقول حسنة كثيرة، ولها نخل كثير وأنواع من الفواكه الرطبة، وبها من الحيتان وضروب السمك من البحر الملح والسمك النيلي كثير، وبها يصاد الدليس ويملحونه ويسافرون به إلى كل الجهات، وهو من بعض تجاراتهم." (الإدريسي، 1989، 1: ص320-346؛ ابن الوزان، 2005م، ص574-575). ومن هذا النص يظهر كون رشيد من الثغور الواقعة عند مصب النيل على البحر المتوسط "(أبو الفدا، د.ت، ص116-117). اشتهرت بزراعة الفواكه، وبخاصة الموز والرمان والبلح (مجهول، 1999، ص89)، وبصيد سمك الدليس الذي يُملّح ويُنقل منها إلى أنحاء البلاد.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

ويذكر الإدريسي المحلة الكبرى مختزلاً حالها بقوله: "هي مدينة كبيرة ذات أسواق عامرة وتجارات قائمة وخيرات شاملة" (الإدريسي، 1989، 1: ص320-346). كما يحدثنا عن الدور الاقتصادي والعسكري لبعض المدن فيقول عن مدينة جدوة، وهي مذكورة فى معاجم البلاد المصرية ولعلها تكون ميناء قريبا من بنها ومنية العطار، ويذكر الإدريسي:"وهي مدينة صغيرة متحضرة لها أسواق عامرة وزراعتها متصلة وخيراتها كثيرة وفي هذه المدينة مراكب كثيرة معدة لتعدية العساكر مختصة بذلك"(الإدريسي، 1989، 1: ص320-346).

هذا فيما يتعلق بوصف الإدريسي للمدن، أما فيما يخص الحِرف والأنشطة الاقتصادية، فقد انتقل الإدريسي إلى ذكرها في سياق عرضه للقرى المصرية، حيث اهتم بإبراز خصائصها الزراعية والحرفية. فقد أشار إلى قرية الخرقانية بقوله: "وهي قرية عامرة لها مزارع وضياع وبساتين كثيرة للملك" (الإدريسي، 1989، 1: ص320-346)، كما وصف قرية شلقان بأنها »قرية كبيرة عامرة"(الإدريسي، 1989، 1: ص320-346). أما قرية زفيتة فقد أورد عنها: "تجتمع المراكب التي يصاد بها الحوت بأسرها، وهذه القرية على رأس الجزيرة حيث ينقسم النيل خلجانًا، وهذه القرية تصاقب مدينة شطنوف التي على رأس الخليج الذي ينزل إلى تنيس ودمياط"، مما يدل على ازدهار نشاط الصيد فيها وموقعها المتميز على مجرى النيل (خسرو، 1993، ص92-95).

ويتناول الإدريسي أبرز الزراعات في القرى، فيقول عن قرية الشاميين» :وهذه القرية يُزرع فيها قصب السكر والبصل والقثاء، وهذه أكبر غلاتها وأكثرها، وهي بذلك مختصة، وهي في الضفة الشرقية، ويقابلها في الضفة الغربية طنت، وهي قرية حسنة كثيرة المزارع والغلات"(الإدريسي، 1989، 1: ص320-346).

كما يشير الإدريسي إلى علاقة القرى بإنتاجها الزراعي وحاصلاتها المختلفة، وما كان يُفرض عليها من موجبات ومكوس تُؤخذ من مزروعاتها وأسواقها، فيذكر على سبيل المثال قرية جنجرة من نواحي بنها العسل بقوله: "قرية جنجر وهي كثيرة الغلات والمزارع" (الإدريسي، 1989، 1: ص320-346)، ثم يورد وصفه لـ منية الفيران فيقول: "هي قرية يُزرع بها غلات الكمون والبصل والثوم برسم قصر الملك" (الإدريسي، 1989، 1: ص320-346)،وهو ما يدل على أن بعض إنتاجها كان مخصصًا للملك، مما يُبرز الارتباط بين النشاط الزراعي والنظام المالي في الدولة، كما يتحدث عن قرية دقدوس مشيرًا إلى سوقها الأسبوعي، فيقول: "وهي قرية كبيرة جدًا ذات بساتين وزروع، ولها سوق نافقة، وهي يوم الأربعاء" (البغدادي، د.ت، 2: ص530).

ويذكر قرية أتريب، التي كانت تابعة إداريًا لمحافظة الشرقية في عصره واستمرت كذلك حتى عهد المماليك، فيقول: "قرية أتريب في الشرقية، وهي قرية لها سوق عامرة" (الإدريسي، 1989، 1: ص334). يُتبعها بذكر قرية وروره، فيقول: "وهي قرية كثيرة الخصب، عامرة بالناس، ولها سوق حسنة" ثم يتحدث عن قرية صهرجت فيصفها بقوله: "قرية عامرة، وبها من غلات السمسم والقنب وأنواع الحبوب كل حسن"، مما يبرز تنوع النشاط الزراعي فيها.

ويشير الإدريسي كذلك إلى قرية دمسيس وسوقها فيقول: "وهي قرية عامرة آهلة، ولها سوق وهو يوم السبت، وسوقها يُباع بها ويُشترى من الثياب والأمتعة كل طريفة، والتجار يقصدونها لنفاقها"، وهو ما يعكس ازدهار الحياة التجارية في الريف المصري وارتباطها بالحركة الحرفية والتجارية الواسعة.

كما يذكر مدينة شرنقاش بقوله: "مدينة صغيرة عامرة حسنة ذات مزارع وغلات وصناعات"، ويصف منية العلوق بأنها: "قرية متحضرة لها معاصر قصب (الإدريسي، 1989، 1: ص320-346)، مما يشير إلى ازدهار الصناعة الريفية، وبخاصة صناعة السكر المستخرجة من القصب.

ومن خلال ما سبق، يمكن استخلاص ملامح الوضعية الاقتصادية للقرى المصرية في عصر الإدريسي، إذ يظهر بوضوح ازدهار الريف المصري بما كان يضمه من مزارع وغلال وضياع وبساتين، الأمر الذي يعكس وفرة موارده الزراعية وغناه الإنتاجي. كما تكشف معطيات الإدريسي عن نمو العمران واتساع رقعة العمارة في بعض القرى، وهو ما يدل على حالة من الاستقرار السكاني والرخاء الاقتصادي. وبرز في هذا السياق نشاط الصيد النهري، ولا سيما صيد الحيتان، وما ارتبط به من صناعة المراكب وأدوات الصيد في بعض المناطق. وقد تخصصت طائفة من القرى بزراعة محاصيل محددة مثل قصب السكر والبصل والقثاء، مما يشير إلى وجود تنوع زراعي واضح وتقسيم وظيفي للإنتاج داخل البيئة الريفية. كما شهدت القرى انتعاشًا ملحوظًا في أسواقها، التي وصفها الإدريسي بأنها «حسنة» و«عامرة» و«نافقة»، إذ كانت تعقد في أيام محددة من الأسبوع، ما يعكس انتظام النشاط التجاري في الريف المصري. ولم يقتصر النشاط الاقتصادي في تلك القرى على الزراعة والتجارة فحسب، بل شمل أيضًا بعض الصناعات المحلية، مثل معاصر قصب السكر، وهو ما يدل على وجود أنشطة اقتصادية مكمِّلة أسهمت في دعم البنية الإنتاجية للريف المصري في ذلك العصر.

ويرتبط بنهر النيل دار المقياس التي كان ينبني عليها الكثير من أمور الاقتصاد المصري، حيث الرخاء بزيادة النيل أو المجاعة بانخفاضه. ومن ثم يحدثنا الإدريسي حديثًا شيقًا عن دار المقياس ويصفها وصفًا دقيقًا، حيث يذكر أنها في الجهة الشرقية مما يلي الفسطاط، وهي دار كبيرة يحيط بها من داخلها في كل وجه أقبية دائرة على عمد، وفي وسطها فسقية كبيرة عميقة ينزل إليها بدرج رخام، وفي وسط الفسقية عود رخام قائم وفيه رسوم، وعلى رأس العمود بنيان متقن من الحجر، وهو ملوَّن مرسوم بالذهب واللازورد وأنواع الأصباغ المحكمة، والماء يصل إلى هذه الفسقية على قناة عريضة تصل بينها وبين ماء النيل، والماء لا يدخل هذه الجابية إلا عند زيادة ماء النيل، وزيادة ماء النيل تكون في شهر أغشت، والوفاء من مائه ستة عشر ذراعًا، وهو الذي يروي أرض السلطان باعتدال، فإذا بلغ النيل ثمانية عشر ذراعًا روى جميع الأراضي التي هناك، فإن بلغ عشرين ذراعًا فهو ضرر، وأقل زيادته تكون اثني عشر ذراعًا، والذراع أربعة وعشرون إصبعًا، فما زاد على الثمانية عشر ضرٌّ لأنه يقلع الشجر ويهدم، وما نقص عن اثني عشر كان بذلك النقص والحدب وقلة الزراعة" (الإدريسي، 1989، 1: ص320-346).

ومما سبق يتضح أن الفاطميين الذين اهتموا بمقياس النيل لم يكونوا أول من بنى هذا المقياس على النيل، بل كان أول من بناه الخليفة المتوكل عام 247ه/861م وعرف بالمقياس الهاشمي. وأن دار المقياس كانت تقع في الجهة الشرقية لما يلي مدينة الفسطاط، وقد وُصفت بأنها دار كبيرة الحجم، مزوّدة برأس عمود المقياس مرسمًا بالذهب واللازورد. وقد سجّل الإدريسي ملاحظاته المتعلقة بفيضان النيل بدقة، موضحًا مستوياته المختلفة وآثارها على الزرع والدور. وهو ما دفع المصريين إلى الحرص على متابعة زيادة النيل والإعلان عنها في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط (خسرو، 1993، ص119).

كما تطرق الإدريسي لوصف الهضبة الشرقية في مصر(الفسطاط) وامتداداتها وموقعها وما تمثله من أهمية، ويمكن ملاحظة ذلك عندما يصف جبل المقطم، حيث يقول: «... وتحفر منه المغرة والكلس، وفيه ذهب كثير، وكذلك في تربته إذا دُبّرت استُخرج منها ذهب" (الإدريسي، 1989، 1: ص320-346).

وفي موضع آخر يصف جبل المقطم ومحتوياته بقوله: «وفي هذا الجبل وما اتصل به كثير من الكنوز مما خبأته ملوك مصر في العصر الأول، وفيه كثير من هياكل الكهنة وعجائبهم، ومما يلي البحر منه الجبل المنحوت المدور الذي لا يستطيع أحد أن يصعده ولا يجد سببًا للطلوع إليه، وذلك لملاسته وارتفاع علوه، ويذكر أن فيه كنوزًا عظيمة لمقطام الكاهن، وإليه يُنسب هذا الجبل بأسره، وفيه أيضًا كنوز كثيرة لبعض ملوك مصر من المال والجوهر وتربة الصنعة والتماثيل العجيبة وأصنام الكواكب" (الإدريسي، 1989، 1: ص320-346).

ويحدثنا الإدريسي عن وادي العلاقي بالصحراء الشرقية وما به من معدن الذهب والفضة، وأنه على مقربة من أسوان معدن الزمرد في برية منقطعة عن العمارة، ولا يوجد الزمرد في شيء من جميع الأرض إلا ما كان منه بذلك المعدن، ومن هذا المعدن يُخرج ويتجهز به إلى سائر البلاد. كما يذكر أن معدن الذهب موجود بأرض البجة قريبًا من أسوان (الإدريسي، 1989، 1: ص320-346).

ويتحدث الإدريسي عن سكان بعض المناطق بالصحراء الشرقية التي يقطنها قبائل عربية مثل بلي وجهينة وصفارة، ومما يلي القلزم قوم من العرب وصفهم بقوله: «أنذال الأفعال، خسيسو الهمم، ناقضو العهود، فساق لئام أنكاد، يعرفون ببني بجرية، لا يرجعون عن محرم، ولا يخيفهم سفك دم، إن استُنصر بهم خذلوا، وإن اطمُئنّ إليهم قتلوا، لا أمانة لهم ولا رعاية ولا ديانة، وقد أعطاهم الله جل جلاله أوفر حظ من الفقر، وابتلاهم بأنواع من الأسقام، وهم مع ذلك عن الإضرار لا ينتقلون، وعن الأذى لا يتحولون (الإدريسي، 1989، 1: ص320-346).

ويحدثنا الإدريسي عن صحارى عيذاب فيذكر أنها متصلة الخلاء، ليس بها ساكن، ولا ينزلها قاطن إلا قوم من البجة رحالة قليلو الإقامة فيها لعدم الماء بأمكنتها.

ويفصل الإدريسي معلومات اجتماعية غاية في الأهمية عن سكان مدينة عيذاب فيقول: "وأهلها سود، وشربهم من آبار، وليست بالكبيرة القطر، ولا بالآهلة العامرة بالخلق... ومدينة عيذاب ينزلها عامل من قبل رئيس البجة، وعامل من قبل ملك مصر، يقتسمون جبايتها بنصفين، وعلى عامل صاحب مصر القيام بجلب الأرزاق والمعيشة إلى عيذاب، وعلى رئيس البجة القيام بحمايتها من الحبشة، والرئيس المقيم بعيذاب من قبل ملك البجة ينزل الصحارى ولا يدخل المدينة إلا غِبًّا، وأهل عيذاب يتجولون في كل النواحي من أرض البجة، يشترون ويبيعون ويجلبون ما هنالك من السمن والعسل واللبن، وبالمدينة زوارق يُصاد بها السمك الكثير اللذيذ الطعم الشهي المأكل، وبها يؤخذ المكس في وقتنا هذا من حاج الإسلام القاصدين من بلاد المغرب، وهذا المكس مبلغه على كل رأس ثمانية دنانير" (الإدريسي، 1989، 1: ص320-346).

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

ويبين الإدريسي أن هذا المكس يأخذه الهاشمي صاحب مكة، فينفقه في أرزاق أجناده، إذ منافعه قليلة وجباياته لا تفي بلوازمه ورزق من معه.
ويحدثنا عن بحر القلزم وأن فيه عدة جزائر خالية يعمرها قوم سمر الألوان يأتون إليها في زوارقهم فيتصيدون فيها السمك الكثير ويجففونه في الشمس، ثم يطحنونه ويخبزونه ويتعيشون منه أكثر دهرهم، ولزومهم في هذه الجزائر لصيد الحوت واستخراج اللؤلؤ الدقيق منه وأخذ السلاحف البحرية (الإدريسي، 1989، 1: ص320-330).
ولا يغفل الإدريسي الحديث عن أكبر جزيرة في بحر القلزم، وهي جزيرة النعمان، وبها قوم لازمون لها ساكنون بها. ويذكر أيضًا جزيرة السامري التي يسكنها قوم يهود سامرية، وعلامتهم أن يقول أحدهم إذا لقي إنسانًا: "لا مساس"، وبهذه اللفظة يُعرف أنهم من اليهود المنسوبين إلى السامري صاحب العجل في زمن موسى عليه السلام. ويذكر أن العنبر الموجود في بحر القلزم إنما هو مما شذّ إليه من بحر الهند. كما يذكر الإدريسي أنواع السمك فيه، مثل حوت اليهار الأحمر الشهي، وسمك الخنجر ذي الرأسين، وسمك القرش ذي الأضراس السبعة الصفوف، ويصفه بأنه من أشدّها خطرًا على البشر (الإدريسي، 1989، 1: ص320--330).
ويختم حديثه بذكر مراكب بحر القلزم فيقول: «ومراكب هذا البحر كلها مؤلفة بالدسر، ومخروزة بحبال الليف، مجلفطة بدقيق اللبان ودهن كلاب البحر المعد لذلك". ويتحدث عن طريقة الإبحار فيها بقوله: «والربانيون في هذه المراكب لهم آلات متخذة بحكمة مهندسة موضوعة في أعلى الصاري الذي يكون في مقدمة المركب، فيجلس به الرباني ويبصر ما لاح أمامه من التروش التي تحت الماء مخفية، فيقول للماسك على المركب خذ إليك وادفع عنك .«ويعقب الإدريسي على ذلك بقوله: «ولولا ذلك ما عبره أحد، وآفاته كثيرة في المراكب، والمسافرون في هذا البحر يأوون منه في كل ليلة إلى مواضع يسكنون فيها ويلجأون إليها خوفًا من معاطبه، وينزلون بها نهارًا ويقلعون عنها نهارًا حالًا دائمًا، سير النهار وإقامة الليل" (الإدريسي، 1989، 1: ص320-330).
ويُلاحظ مما سبق أن الإدريسي، على الرغم من كونه غريبًا عن مصر، كان على معرفة دقيقة بطبقات المدن المصرية وتدرجها العمراني والاجتماعي (الإدريسي، 1989، 1: ص320-330)؛ إذ بدأ بوصف كبريات المدن ذات المكانة السياسية والاقتصادية، ثم انتقل إلى المدن المتوسطة مثل المحلة الكبرى وجدوة وغيرها، قبل أن يتناول القرى والكفور الصغيرة الواقعة بين هذه الحواضر. ولعل الإدريسي كان يطبق في هذا الترتيب منهجًا جغرافيًا معروفًا لدى الجغرافيين المسلمين (الإدريسي، 1989، 1: ص320-330)، هو منهج تصنيف المدن بحسب طبقاتها، كما سبقت الإشارة إليه.
ويُلاحظ كذلك أن الإدريسي قد أولى عناية خاصة بذكر الصناعات والحرف في المدن المصرية، مشيرًا إلى أبرز ما اشتهرت به كل مدينة من نشاط صناعي أو مهني، وما نتج عن ذلك من تطور عمراني انعكس على طبقات المدن التي سبقت الإشارة إليها. فقد كان يربط بين الازدهار الاقتصادي والحالة العمرانية، معتبرًا أن النشاط الصناعي والتجاري سبب في رقيّ المدينة ونتيجة لازدهارها في آنٍ واحد (الإدريسي، 1989، 1: ص320-330). فعلى سبيل المثال، عند حديثه عن مدينة الإسكندرية، يصف متانة أبنيتها قائلاً إن "عقائد بنيانها صحاح"، وهو ما يعكس جودة العمارة فيها، ويربطه الإدريسي بثراء سكانها الذين عملوا في التجارة أو في الخدمات المرتبطة بها في موانئها، فضلًا عن استفادتها من ظهيرها الزراعي .واللافت في وصفه المعماري أنه لم يقتصر على المباني العامة، بل اهتم بذكر الآثار القديمة، فيتحدث عن منارة الإسكندرية مبررًا سبب إنشائها، إذ يوضح أن المدينة تقع على سطح مستوٍ يخلو من الجبال والهضاب التي قد يهتدي بها البحارة، ومن ثم أُقيمت المنارة لتكون علامة للسفن، كما حدد موقعها بدقة لافتة، وهو ذات الموضع الذي أُقيمت فيه لاحقًا قلعة قايتباي (الإدريسي، 1989، 1: ص331).
وعند انتقاله إلى القاهرة والجيزة، يشير الإدريسي إلى الأهرامات بوصفها من أعجب ما بُني من آثار، ويؤكد إعجازه ليس فقط في حجم البناء ودقته، بل في كون تلك الأحجار لم تُقطع من جبال مجاورة (الإدريسي، 1989، 1: ص331)، مما يدل على عظمة الجهد الهندسي المبذول في إنشائها. ويلاحظ أيضًا أنه ذكر أن الأهرامات اثنان فقط، مما يدل على أن الهرم الأصغر كان قد غطّته الرمال بفعل عوامل التعرية في عصره (الإدريسي، 1989، 1: ص331).
كما يُعنى الإدريسي في وصفه للمدن والقرى بذكر الأسواق ومواعيد انعقادها، وهو ما يتيح للباحثين المعاصرين تصورًا دقيقًا عن الحياة الاقتصادية في العصر الفاطمي وبداية العصر الأيوبي .إذ تُظهر ملاحظاته اختلاف أيام انعقاد الأسواق بين قرية وأخرى، مما أتاح تنوعًا في فرص البيع والشراء وتداول السلع، وأدى إلى رواج التجارة

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

وتنظيم النشاط الاقتصادي .ويمكن من خلال ذلك الاستدلال على كيفية تحديد مواقع الأسواق وأيام انعقادها، بل وحتى معرفة إن كانت هناك أسواق نوعية تختص بسلع معينة دون غيرها (الإدريسي، 1989، 1: ص331).

ولا يقتصر الإدريسي في تناوله للنواحي الاقتصادية على عرض مظاهر الثراء العمراني أو نشاط الأسواق فحسب، بل يشير كذلك إلى بعض الموجبات والمكوس التي كانت تُفرض في هذه الأسواق، وإن لم يحدّد قيمتها أو نسبتها، مما يدل على معرفته الدقيقة بالنظام المالي والإداري القائم.

وبوجه عام، لا يمكن دراسة الوضع الاقتصادي لمصر في الربع الأول من القرن السادس الهجري بمعزل عمّا دوّنه الإدريسي، إذ إن وصفه جاء من وجهة نظر الغريب عن البلاد، وهو ما يمنحه قدرًا من الموضوعية والحياد، رغم ما تخلل عمله أحيانًا من أخطاء في أسماء بعض القرى (الإدريسي، 1989، 1: ص331). ومن ذلك مثلًا ذكره لقرية "جدوة" (الإدريسي، 1989، 1: ص331)، التي يُرجّح أنها "دجوى "إحدى قرى نواحي بنها، إذ يذكر الإدريسي أن "الهابط منها يصل إلى منية العطار"، وهي ملاحظة تنطبق فعليًا على موقع دجوى الحالية الواقعة شمال ميت العطار وربما كان هذا الخطأ نتيجة سهوٍ في النسخ أو تحريفٍ من قبل النساخ أو المحققين اللاحقين، ويؤيد هذا الرأي أن الإدريسي قد استخدم في موضع آخر كلمة "الجوف "بينما كان يقصد بها "الحوف "في الدلتا، إذ إن لفظ الحوف كان يُطلق في ذلك العصر على منطقتين في الدلتا :الحوف الشرقي والحوف الغربي، تبعًا لفرعي نهر النيل. ومن ثمّ، يُرجَّح أن الإدريسي قد كتبها أصلًا بصيغة "الحوف"، وأن ما ورد من اختلاف إنما يعود إلى تصحيفٍ نَسَخيٍّ أو تحريفٍ لاحق في بعض نسخ كتابه.

ومع ذلك، يُلاحظ أن الإدريسي استخدم أحياناً مصطلحات إدارية غير مألوفة في البيئة المصرية، مما يدل على اتساع ثقافته الجغرافية واطلاعه على أنظمة البلدان الأخرى. فقد استعمل، على سبيل المثال، مصطلح "رساتيق " –جمع رستق –في وصف الوحدات الإدارية التي تتبع المدن الكبرى، وهي ما يقابل في التنظيم المصري آنذاك الكُوَر أو المراكز العمرانية التي تتبعها القرى. ويُعدّ هذا الاستخدام شاهدًا على إدراكه العميق للتكافؤ بين النظام الإداري الفارسي ونظيره المصري، إذ إن لفظ رستق في بلاد فارس كان يعني الوحدة الإدارية أو الإقليم الريفي التابع لمدينة مركزية.

وتُعدّ هذه الملاحظة – على بساطتها الظاهرية – ذات قيمة علمية كبيرة؛ فهي تكشف عن وعي الإدريسي بالبنية الإدارية الجغرافية لمصر، وعن محاولته دمج مصطلحاته الخاصة ضمن الإطار المقارن الذي يميز منهجه الجغرافي، دون أن ينتقص ذلك من دقة وصفه أو قيمة مادته التاريخية والجغرافية

وخلاصة القول؛ فإن قراءة الإدريسي لمسميات المدن والقرى المصرية كانت دقيقة ومنضبطة، وجاءت رؤيته بالغة النفع عظيمة الأثر في توثيق أهم الصناعات والحرف والمهن التي انتشرت في مصر خلال عصره، مما يجعل وصفه مصدرًا لا غنى عنه لفهم البنية الاقتصادية والعمرانية للمدن المصرية في القرن السادس الهجري (الإدريسي، 1989، 1: ص331).

المبحث الرابع
ملامح المجتمع المصري في المدن والقرى

أبدى الإدريسي فى رحلته وتدوينها اهتمامًا بجوانب التاريخ الاجتماعي فى كتابه عندما يتحدث عن قبائل البجة بصحراء عيذاب فيقول «وفي أعلى الأرض من هذا الجزء صحاري عيذاب وهي متصلة الخلاء ليس بها ساكن ولا ينزلها قاطم إلا قوم من البجة رحالة قليلو الإقامة فيها لعدم الماء بأمكنتها وقلة وجوده بها" (الإدريسي، 1989، 1: ص334). فمثلا لم يغفل الإدريسي الجانب الديني والاجتماعي، إذ أشار دائما بما دونه عن مصر عن الطوائف الدينية في مصر، من ذلك ما أورده عند حديثه عن منطقة الحوف إلى أن: "أكثر رساتيق مصر وقراها في الجوف والريف، والريف هو ما كان من النيل جنوبًا، وأكثر أهل هذه القرى قبط نصارى يعقوبية، ولهم الكنائس الكثيرة، وفيهم قلة شر، وهم أهل يسار"، وهو نص ذو أهمية خاصة في التعرف على التركيبة السكانية والدينية للقرى المصرية في عصره، حيث عكس قدرًا من الاستقرار الاجتماعي والرخاء الاقتصادي.

ثم ينتقل الإدريسي إلى سكان صحاري مصر، معللًا قلتهم بسبب ندرة المياه، ولهذا أصبحت أغلب هذه الصحراء طاردة للسكان. ويمكن أن نلاحظ مقدرة الإدريسي في الربط والتحليل حال حديثه عن مناخ مصر والمغرب، فيقول: «أرض مصر لا تمطر ولا تثلج البتة إلا يسيرًا في بعض أيام الشتاء بأعاليها، وأما بأسافلها كرشيد ودمياط

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

فإنها لا تمطر كثيرًا كالشام والروم"، وقد لاحظ العلاقة بين حركة الهواء وسفي الرمال في أرض المغرب حيث يذكر: «إن بها رمالًا سائلة تنقلها الرياح من مكان إلى مكان»، ويضيف علاقة تلك الظاهرات بالعمران والاستقرار البشري، حيث يقول: «وليس لأحد بها مستقر لاعتداء الرمال عليها وكثرة جري الرياح" (الإدريسي، 1989، 1: ص322-344).

ويفيض الإدريسي في التاريخ الاجتماعي واصفًا دور طبيعة دور السكان فى أغلب مدن مصر بقوله: «وبنيان دورها كلها وقصورها طبقات بعضها فوق بعض، والأعم من ذلك تكون طباقها في العلو خمسة وستة وسبعة، وربما سكن في الدار المائة من الناس وأكثر" (الإدريسي، 1989، 1: ص322-344)، وهو أمر إن دل على شيء يدل على عظم التقدم المعماري في الأبنية في مصر، وانتشار طائفة المهندسين والبنائين المختصين بذلك.

ثم يعرج الإدريسي في رحلته لرصد بعض العادات الرذيلة لسكان بعض المدن، فيقول عن مدينة الصالحية: «متحضّرة، وفيها عمارات وزراعات، وأهلها لصوص لهم أذية فاشية، وهم بالشر موسومون" (الإدريسي، 1989، 1: ص344).

ويجمع الإدريسي بين التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في نظرته إلى مصر وأهلها، إذ لم يقتصر على وصف مواردها ومزارعها، بل تناول أيضاً طبائع سكانها وأنماط عيشهم. ويبدو ذلك جليًا في قوله: "ومصر بالجملة عامرة بالناس، نافقة بضروب المطاعم والمشارب وحسن الملابس، وفي أهلها رفاهة وظرف شامل وحلاوة، ولها في جميع جوانبها بساتين وجنات وشجر ونخل وقصب سكر، وكل ذلك يُسقى بماء النيل، ومزارعها ممتدة من أسوان إلى حد الإسكندرية."

وفي هذا النص يجمع الإدريسي بين وصف الطبيعة الاقتصادية والرفاه الاجتماعي، فيُبرز رخاء مصر وازدهار مواردها، كما يُشير ضمنًا إلى انتشار مظاهر الترف بين أهلها من حسن المأكل والملبس، مما يدل على ازدهار الأسواق والمطاعم وتنوع موارد العيش. وقد يُفهم من وصفه هذا أن عادة تناول الطعام في المطاعم كانت شائعة بين فئات من المصريين، ربما بسبب انشغالهم بأعمالهم أو طبيعة الحياة الحضرية المزدهرة التي عرفتها المدن المصرية آنذاك (الإدريسي، 1989، 1: ص344).

ونظرًا لأن نهر النيل كان ولا يزال شريان الحياة في مصر عبر جميع العصور، فقد أولاه الإدريسي اهتمامًا بالغًا في أكثر من موضع من كتابه، مدركًا أنه الركيزة الأساسية لقيام الزراعة وازدهار العمران واستمرار الحياة في البلاد. وقد ربط الإدريسي بين مسارات العمران البشري ومجرى النيل، مشيرًا إلى أن الأهالي قد التفّوا حول ضفتيه من أسوان حتى رشيد، حيث تركزت القرى والمدن في واديه الخصب.

ولم يقتصر وصفه على الجانب الجغرافي والزراعي فحسب، بل قدّم رصدًا بيئيًا وحيويًا دقيقًا لما يزخر به النيل من كائنات ونظم بيئية متكاملة، فذكر التمساح وجاموس النهر (الذي سماه الخنزير النهري)، وأنواعًا متعددة من الأسماك مثل اللاش والأبرميس والبلطي واللوطيس (الفرخ) واللبيس والنيناريات والشال والإنكليس والجرّي والقافو والرعادة وغيرها من الأنواع التي دوّنها الإدريسي بدقة ملحوظة، مما يعكس اتساع ملاحظته ووعيه بالتنوع الحيوي للنهر.

كما أشار الإدريسي إلى أن وفرة الأسماك والمياه على امتداد النيل أسهمت في انتشار مهن الصيد بين الأهالي، إلى جانب مهن أخرى ارتبطت بالنهر مثل النقل النهري والملاحة بالسفن التي كان يمتهنها "النواتية" في مدن كدمياط وتنيس وغيرها، وهي دلالة على الحيوية الاقتصادية التي أوجدها النهر في حياة المصريين.

ولم يغفل الإدريسي الجانب الإنساني والاجتماعي في ملاحظاته، إذ أشار إلى تأثير الطبيعة الخصبة ورخائها على صحة المرأة المصرية، ملاحظًا أن بعض النساء قد يلدن طفلين أو ثلاثة في حمل واحد، وهو أمر فسّره المصريون آنذاك بصفاء ماء النيل وجودته، في إشارة إلى ارتباط النيل بالحياة والصحة والخصب في الوعي الجمعي المصري (الإدريسي، 1989، 1: ص344).

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة، يمكن استنتاج أن الإدريسي قدّم وصفًا دقيقًا وشاملًا للبنية الاقتصادية والاجتماعية لمصر في العقد الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حيث برز دوره في إبراز الاقتصاد الزراعي ودور نهر النيل كشريان حياة ومصدر للرخاء، موضحًا كيف اعتمدت الزراعة والصناعات على انتظام فيضان النيل ووفرة مياهه. كما بيّن الإدريسي أهمية دار المقياس في ضبط العلاقة بين ارتفاع وانخفاض المياه وبين مستوى الإنتاج الزراعي، مما يدل على وعيه الاقتصادي بتأثير العوامل الطبيعية على الحياة المعيشية

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

للمصريين. وأشار إلى تنوع الإنتاج الزراعي في القرى، بما في ذلك الغلال والحبوب والبصل وقصب السكر والكمون، وهو ما يعكس ازدهار الريف وتعدد أنماط الزراعة وقيام اقتصاد محلي قوي يعتمد على الاكتفاء الذاتي والتبادل التجاري الداخلي.

وقد تناول أيضًا النشاط التجاري والأسواق الريفية، موضحًا مواقعها ومواعيد انعقادها، بما يعكس وجود نظام اقتصادي منظم يسمح بحركة تبادل سلعي مستمرة بين القرى، كما رصد الصناعات المحلية مثل معاصر قصب السكر وصناعات النسيج، مؤكدًا تنوع البنية الإنتاجية وارتباطها بالمصادر الزراعية والطبيعية المتاحة. ولم يقتصر اهتمامه على الزراعة والصناعة، بل أشار إلى الثروات المعدنية في الهضبة الشرقية ووادي العلاقي، مثل الذهب والزمرد والمعادن النفيسة، موضحًا مواقعها وطرق استخراجها، مما يعكس وعيًا اقتصاديًا مبكرًا بالموارد الطبيعية لمصر، إضافة إلى وصفه للأنشطة البحرية والسمكية في نهر النيل وبحر القلزم، وذكره لأنواع الأسماك وطرق الصيد والمراكب، وهو ما يعكس دور الثروة المائية في دعم الاقتصاد وتنوع الموارد الغذائية والتجارية.

كما أبدى الإدريسي اهتمامًا بالتركيبة السكانية والاجتماعية، مصوّرًا عمران المدن والقرى وكثافة سكانها ووجود الدور متعددة الطبقات، بما يدل على التمدن والزيادة السكانية في الحواضر، كما رصد الاختلافات الاجتماعية بين سكان المدن والريف والصحراء، مبينًا رفاهية الحضر مقابل صعوبة المعيشة في الصحاري وقلّة السكان نتيجة ندرة المياه، وموثقًا سلوكيات بعض الجماعات والقبائل، مثل أهل الصالحية وقبائل البجة والعرب في الصحراء الشرقية، وهو ما يوفّر مادة اجتماعية نادرة.

وجمع الإدريسي بين الوصف والتحليل في عرضه للمجتمع المصري، رابطًا بين طبيعة البيئة وطبائع السكان وسبل عيشهم، ما يعكس وعيًا اجتماعيًا واقتصاديًا متقدّمًا، ويجعل مؤلفاته أكثر من مجرد ملاحظات جغرافية، بل سجلاً حضاريًا متكاملاً يجمع بين الاقتصاد والمجتمع والعمران، ويقدّم مادة فريدة لفهم الحياة المصرية في أواخر العصر الفاطمي من منظور علمي دقيق وشامل.

المصادر والمراجع

1. محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني (ت نحو 560هـ/1165م) :الجامع لصفات أشتات النبات وضروب أنواع المفردات .مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية التونسية، منقول عن نسخة محفوظة في مكتبة برلين بألمانيا.
2. ابن الجيعان، علي بن أحمد (ت بعد 885هـ/1480م تقريبًا). (2017). التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية. دراسة صلاح محمد عبد الحميد. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
3. ابن سعيد المغربي، علي بن موسى (ت 685هـ/1286م). (د.ت). النجوم الزاهرة في حُلى حضرة القاهرة. القاهرة.
4. الإصطخري، إبراهيم بن محمد الفارسي (ت نحو 346هـ/957م). (د.ت). المسالك والممالك. تحقيق محمد جابر عبد العال. القاهرة.
5. أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت 732هـ/1331م). (د.ت). تقويم البلدان. بيروت: دار صادر.
6. ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة (ت 668هـ/1270م). (د.ت). عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق عامر النجار. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
7. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت 560هـ/1165م). (د.ت). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
8. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني (ت 560هـ/1165م). (1995). الجامع لصفات أشتات النبات وضروب أنواع المفردات. إصدار فؤاد سزكين بالتعاون مع مازن عماوي وإيكهارت نويباور. ج1. فرانكفورت: معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية.
9. الإدريسي، الشريف محمد بن محمد بن عبد الله الحسني الطالبي (ت 560هـ/1165م). (1864). صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس: مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. ليدن: مطبعة بريل.
10. الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ق 6هـ/12م). (د.ت). كتاب الجغرافية. تحقيق محمد حاج صادق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

11. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ/1363م). (د.ت). الوافي بالوفيات. تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. بيروت: دار إحياء التراث.
12. مجهول (ق 4هـ/10م). (1999). حدود العالم من المشرق إلى المغرب. تحقيق يوسف العادي. القاهرة: الدار الثقافية للنشر.
13. المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت نحو 380هـ/990م). (1991). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. بيروت: دار صادر.
14. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/1441م). (د.ت). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. القاهرة: مكتبة الآداب.
15. النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل (ت 1143هـ/1731م). (2017). الفيوم وبلاده. تقديم ودراسة محمد التداوي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
16. ناصر خسرو، أبو معين الدين (ت 481هـ/1088م). (1993). سفر نامه. ترجمة يحيى الخشاب. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
17. أحمد حسين النمكي. (2017). الدولة الفاطمية ومظاهر الحياة السياسية والحضارية في صحراء مصر الشرقية. القاهرة: مكتبة مدبولي.
18. أحمد سوسة. (1974). الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية. بغداد: نقابة المهندسين العراقيين.
19. أحمد نفيس. (1978). الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي. ترجمة فتحي عثمان. الكويت: دار القلم.
20. أسيمينوفا. (2001). تاريخ مصر الفاطمية. ترجمة وتحقيق حسن بيومي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
21. أملينو. (2013). جغرافية مصر في العصر القبطي. ترجمة ميخائيل مكسى إسكندر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
22. بالنثيا. (1955). تاريخ الفكر الأندلسي. ترجمة حسين مؤنس، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
23. البشير صفر. (1984). الجغرافيا عند العرب: نشأتها وتطورها. تقديم وتعريب حمادي الساحلي. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
24. حسين مؤنس. (1986). تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس. القاهرة: مكتبة مدبولي.
25. السيد عبد العزيز سالم. (د.ت). التاريخ والمؤرخون العرب. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
26. الشيخ الأمين محمد عوض الله. (2014). أسواق القاهرة منذ العصر الفاطمي حتى نهاية عصر المماليك. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
27. عبد الحميد حسين محمود حمودة. (2014). الحضارة الإسلامية في إقليم الدلتا في العصر الفاطمي. القاهرة: دار الآفاق العربية.
28. عبد الرحمن حميد. (1980). أعلام الجغرافيين العرب. دمشق: دار الفكر العربي.
29. عبد المنعم ماجد. (1986). تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
30. عيسى علي إبراهيم. (2009). الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
31. عطية القوصي. (1976). تجارة مصر في البحر الأحمر من فجر الإسلام وحتى سقوط الخلافة العباسية. القاهرة: دار الفكر.
32. فايد حماد عاشور. (1981). العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي. تقديم جوزيف نسيم يوسف. القاهرة: دار المعارف.
33. كراتشكوفسكي. (1957). تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. القاهرة: الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية.
34. كنون. (د.ت). الشريف الإدريسي. سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، رقم 24، تطوان.
35. محمد أحمد إبراهيم. (2017). الدولة الفاطمية في مصر: الحياة السياسية والمظاهر الحضارية. القاهرة.
36. محمد السيد غلاب. (1984). الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي. بحوث المؤتمر الإسلامي الأول، المجلد الثالث. الرياض: مركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
37. محمد جمال الدين سرور. (د.ت). تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق. القاهرة: دار الفكر العربي.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

38. محمد عبد الغني حسن. (1971). الشريف الإدريسي: أشهر جغرافيي العرب والإسلام. سلسلة أعلام العرب، العدد 97. القاهرة: الهيئة العامة للتأليف والنشر.
39. محمد عبد الله عنان. (2000). تراجم إسلامية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
40. محمد محمود إدريس. (د.ت). تاريخ الحضارة الإسلامية في العصر الفاطمي. القاهرة: مكتبة نهضة الشرق.
41. محمد مرسي الحريري. (1985). الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
42. محمود سعيد عمران. (2015). الرحالة والجغرافيون في أوربا العصور الوسطى. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
43. محمود فاخوري وصلاح الدين خوّام. (2002). موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية وما يعادلها بالمقادير الحديثة. بيروت: مكتبة لبنان.
44. مصطفى الشهابي. (1962). الجغرافيون العرب. سلسلة اقرأ. القاهرة: دار المعارف.
45. نجوى كيرة. (2004). حياة العامة في مصر في العصر الفاطمي. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
46. نفيس أحمد. (د.ت). جهود المسلمين في الجغرافية. ترجمة فتحي عثمان. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
47. يسري الجوهري. (1984). الكشوف الجغرافية: دراسة لتاريخ الكشوف الجغرافية وتطور الفكر الجغرافي. بيروت: دار النهضة العربية.
48. أحمد فؤاد باشا. (1997). "العلوم الجغرافية في التراث الإسلامي"، مجلة المنهل، جدة.
49. سعد زغلول عبد الحميد. (1954). "ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة في القرنين السادس والسابع الهجريين". مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.
50. محمد بركات البيلي. (2007). "ملاحظات جديدة على الشريف الإدريسي وخطيّته أنس المهج وروض الفرج"، ع30، مجلة المؤرخ المصري، جامعة القاهرة.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026
العدد (128) يناير 2026

الملاحق

ملحق(1)

تُظهر **خريطة مصر** كما رسمها الإدريسي في الجزء الرابع من الإقليم الثالث، حيث صوَّر **دلتا النيل (أسفل الأرض)** بين فرعي **دمياط** و**رشيد**، وما يتفرع عنهما من **خلجان ومجاري مائية**، كما حدَّد موضع **مدينة الإسكندرية** بدقة، ورسم **منارتها** باعتبارها أحد أبرز معالمها الجغرافية.

من مخطوط نزهة المشتاق المحفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 2222

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

ملحق (2)

منابع النيل كما رسمها الإدريسي

من مخطوط نزهة المشتاق المحفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 2222

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.128.2026.1619
ISSN Online: 2414-3383
ISSN Print: 2616-3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com editor@jalhss.com
Volume (128) January 2026 العدد (128) يناير 2026

ملحق (3)
العالم وخريطته عند الإدريسي

من مخطوط نزهة المشتاق المحفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 2222